

# ابن رشد في اللاهوت المسيحي

د. عامر الحافي

جامعة آل البيت/الأردن

## مقدمة:

نجد الخطاب الفلسفي الرشدي بمضامينه الإنسانية والعالمية في التوغل خلف التحصينات الأوروبية القروسطية التي سممتها أجواء الحروب الصليبية والعداء الشديد لكل ما هو إسلامي .

كان التواصل الثقافي والفكري أمراً واقعاً وحتمياً بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، وقام المسيحيون في الشرق بدور وسيط مؤثر في هذا التواصل ، ولم يكن الموقف (المسبق ، الغامض ، الإشكالي ، الاستريابي)<sup>(١)</sup> يمنع وصول المؤثرات الفكرية الإسلامية إلى المسيحية الغربية .

أثار الإسلام بانتصاراته السريعة وروح أتباعه القوية أسئلة كثيرة في العقل الغربي ، وكان انتشار الإسلام بين الشعوب المسيحية في الشرق بمثابة ضربة قاسمة للاهوت المسيحي الذي راح يللم أنفاسه ويعيد بناء أصوله الفكرية والروحية .

فما هو الإسلام؟ ولم ينتصر؟ ما هو المضمون الفكري للإسلام؟ وماهي مشيئة الله في وجود هذا الدين وانتصاره؟

من غير الممكن إنكار تأثير الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا والذي شمل كافة الميادين الثقافية والاقتصادية والفنية والعلمية . وإذا كان وصف رينان لابن رشد بقوله إنه " آخر ممثل لحضارة تنهار " حقيقة صحيحة فإن القول بأن الإكويني كان أول ممثل لحضارة تنهض لا يقل صحة عن سابقه . لا شك أن تبعات الإنهيار العربي

(١) أليكس جورافسكي ، الإسلام والمسيحية ، ص ٣٥ .

الذي ترسخت في واقعنا وعقولنا يجعل من إمكانية إنصاف ابن رشد أو حتى فهمه أمراً صعباً. لقد مرّ ابن رشد من الشرق دون أن يشعر به أحد<sup>(١)</sup> فلماذا أغفل ابن خلكان والصفدي والقفطي ذكر ابن رشد في مؤلفاتهم وحتى حاجي خليفة لم يذكره إلا عرضاً في سياق حديثه عن تهافت الفلاسفة للغزالي؟!

كان ابن رشد الامتداد الطبيعي للفلسفة الإسلامية، وقد استطاع أن يهضم فلسفة الكندي والفارابي وابن سينا وابن باجة.

إن فهمنا لابن رشد يصبح أكثر عمقاً وأبعد غوراً عندما نحفر في تاريخ الفكر الوسيط، لتتعرف على انعكاسات الرشدية في اللاهوت المسيحي في القرن الثالث عشر.

يهدف هذا البحث إلى دراسة تأثير ابن رشد والرشدية في اللاهوت المسيحي الغربي الوسيط، من خلال تركيز الضوء على أكبر أعلام ذلك اللاهوت وهو توما الإكويني.

إن عملية التأثير والتأثير بين الحضارات والمجتمعات عملية واقعية لا مجال للتنكر لها أو التبرؤ منها؛ فالفكر الإنساني بطبيعته المتراكمة وتركيبه المبدع يسير وفق التاريخ ومن خلاله، لا رغباً عنه وفوقه. لقد كان اللقاء الأول بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة المسيحية على أرض بلاد الشام والعراق ومصر وقد أنتج هذا اللقاء علم الكلام، وتم دمج العديد من العناصر الثقافية للبلدان المفتوحة، حيث كانت المدارس اللاهوتية المسيحية منتشرة. وبعد أربعة قرون كان لقاء ثان في مكان آخر وهو أوروبا، وكانت الفلسفة هي أكبر نتاج هذا اللقاء، وكانت طليطلة وصقلية أكبر بوابتين لدخول الفكر الفلسفي الإسلامي إلى البلاد الغربية. ويؤكد ماسينيون أن الحوار بين المسلمين والمسيحية قد بدأ في القرن الثالث عشر بعد أن كان الجدل والمناظرة هو وسيلة المعرفة الوحيدة بينهما<sup>(٢)</sup>.

(١) انطوان سيف، ابن رشد رؤية عربية معاصرة، ص ٥٣.

(٢) فروية قنواتي، فلسفة الفكر الديني، ج ١.

## عوامل توجيه التفكير الفلسفي في الغرب

لقد ساهمت أربعة عوامل في توجيه التفكير الفلسفي في الغرب وجهة جديدة وهذه العوامل هي:

١- تأسيس الجامعات .

٢- إقامة سلك الرهينة (العاملة) .

٣- اكتشاف أرسطو .

٤- الاتصال بالفلسفة العربية .

ترتبط هذه العوامل ببعضها بصورة وثيقة؛ فقد كانت مناهج التعليم في الجامعات الأوروبية قد شرعت في إعطاء مساحة لدراسة أعمال أرسطو، واكتشاف أرسطو قد تم من خلال الفلسفة العربية<sup>(١)</sup>.

نجح العقل الغربي في تحويل الفكر الفلسفي والعقلاني إلى آلية واقعية، بعد أن أحسن تتبع مواطن القوة في الفكر الإسلامي، وأعاد توظيفها بما يتلاءم مع غاياته وأهدافه .

ليس المقصود من هذا البحث تضخيم دور ابن رشد أو الوقوع في التمجيد وكيل المديح دون أساس علمي سديد بل محاولة الوقوف على أثر هذا الفيلسوف الكبير في اللاهوت المسيحي من خلال القديس توما الاكويني .

### وصول ابن رشد إلى الغرب:

بدأ الغرب عصر الترجمات قبل ابن رشد وكانت الترجمات مختارة ومختصة وجاءت المرحلة الأولى منها في القرن الثاني عشر مشتملة على كتابات الكندي ( في العقل) والفارابي (في العقل) والغزالي (مقاصد الفلاسفة) وابن سينا (مقتطفات من الشفاء)<sup>(٢)</sup>.

(١) ادوارد، الفلسفة الوسيطة، ص ١٠٩ .

(٢) غرديه، فلسفة الفكر الديني، ج ٢، ص ١٤١ .

وقد جاءت ترجمة كتب ابن رشد في القرن الثاني عشر والثالث عشر وكان ميخائيل سكوت (ت ١٢٣٥) أول من ترجم شروح ابن رشد على أرسطو ثم تبعه هرمان (ت ١٢٧٢)<sup>(١)</sup>.

وقد تم خلال القرن الثاني عشر ترجمة خمسة عشر شرحاً من شروح ابن رشد الثمانية والثلاثين على مؤلفات أرسطو من العربية إلى اللاتينية<sup>(٢)</sup>. تركزت الترجمات اللاتينية حول شروح ابن رشد لأرسطو وهناك نقاش حول وصول مؤلفات ابن رشد التي أظهر فيها إبداعه وأصالته الخاصة وهي: تهافت التهافت، وفصل المقال، ومناهج الأدلة.

فلم تنحصر مؤلفات ابن رشد على شرح أرسطو، وإن كان هذا الشرح في قمة الإبداع والعمق واستيفاء آراء وأخطاء الشراح الآخرين خاصة ابن سينا والفارابي. لم تتعرض المسيحية اللاتينية لترجمة شاملة لكل ما هو إسلامي، بل اقتصر اهتمامها على الجوانب الضرورية لها. وهذا بمثابة ما حدث مع ترجمات بغداد عن اليونانية والسريانية التي تركزت حول الفلسفة والعلوم. وقد كانت الفلسفة هي الموضوع الأساسي للترجمات اللاتينية، وكان أرسطو، الذي أعيد اكتشافه بطريقة مختلفة تماماً، قطب الرchy الذي دارت عليه حركة الترجمات الأولى.

ومثلت شروحات ابن رشد على مؤلفات أرسطو البوابة الكبرى التي دخل منها أرسطو إلى الغرب؛ فقد استوفت هذه الشروحات كل عبارة وجملة في مؤلفات أرسطو، مؤسسة بذلك أسلوباً جديداً في شرح أرسطو، يشبه أسلوب التفسير القرآني الذي يفسر النص عبارة عبارة وجملة جملة، وهذا هو نفس الأسلوب الذي اتبعه القديس توما فيما بعد في شرحه لأرسطو<sup>(٣)</sup>.

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٣٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٧٣.

لقد عرف ابن رشد بأنه الشارح الأكبر لأرسطو، وأدت شروحاته إلى تأسيس حركة فكرية غربية؛ عرفت باسم الرشدية، كان لها أكبر الأثر في استنهاض الفكر اللاهوتي المسيحي وعلى وجه الخصوص الأكوييني، فقد اتخذ الأكوييني من الفلسفة الأرسطية الأساس الذي أقام عليه مشروعه اللاهوتي الجديد.

من جهة أخرى ساهم المترجمون اليهود في إيصال فلسفة ابن رشد إلى الغرب فقد كانت الترجمات العبرية جسراً واسعاً انتقل عبره العديد من المؤلفات والمنجزات إلى الغرب.

كانت مؤلفات ابن رشد تقرأ بالعربية بين العلماء اليهود المتأثرين بالثقافة العربية، وقد أدى تشرد اليهود في مطلع القرن الثالث عشر إلى ما وراء جبال البيرينيه وعلى ساحل البحر الأبيض إلى انتشار أفكار ابن رشد، حيث كان المفكرون اليهود قد ترجموا مؤلفات ابن رشد إلى العبرية ومن أشهر المترجمين اليهود موسى بن ميمون، يعقوب بن أبي ماري، وسمعان أنا طولي، سليمان بن يوسف، زكريا بن اسحاق، يوسف بن ماخي، وفي القرن الرابع عشر انضم إلى هؤلاء كالونيم بن كالونيم وتودروس وصموئيل بن يهوذا، وقاموا بوضع شروحات على شروح ابن رشد على أرسطو.

ورغم النقمة الشديدة الذي كان اللاهوت المسيحي يكنها لليهود فإن الروابط اللاهوتية والثقافية بين اليهود والمسيحيين لم تكن مقطوعة؛ الأمر الذي سهل انتقال ابن رشد بطريقة غير مباشرة إلى اللاهوت المسيحي، واستفادت الترجمات اللاتينية من الترجمات العربية من خلال مقارنة النصوص للخروج بالترجمة الأفضل لأعمال ابن رشد<sup>(١)</sup>. كما أن تأثر ابن ميمون بابن رشد قد ساهم بنقل العديد من الأفكار إلى الأكوييني الذي تأثر بدوره بابن ميمون.

لقد أدت مساهمة المفكرين اليهود في نقل الفكر الإسلامي إلى إضافة مبرر جديد لنقمة وكرهية الكثير من المسيحيين الغربيين لليهود؛ فقد اعتبر هؤلاء أن

---

(١) ماجد فخري، ص ٣٧٥.

اليهود هم وراء إدخال ابن رشد وقيام الحركة الرشدية في الغرب بهدف تخريب المسيحية وتدميرها .

كانت الكنيسة معارضة لدخول الأرسطية وشروحاتها وقد أصدر مجمع باريس (١٢١٠م) تحريماً يقضي بمنع كتب أرسطو وشروحه . وفي مجمع (سنة ١٢٣١م) أكد البابا غريغوار التاسع تثبيت الحظر الذي أقره مجمع باريس ، لكنه فتح باباً للاستفادة من طبيعيات أرسطو بعد تنقيتها وتطهيرها من الأخطاء حتى يتسنى اللاهوت المسيحي الاستفادة منها . وقد فتح هذا القرار الباب لدخول الفلسفة في أبحاث اللاهوت ، وهكذا راحت كتابات أرسطو تلج إلى الغرب ورافقها العديد من كتابات الشراح العرب<sup>(١)</sup> .

## الرشدية اللاتينية

شكل اتباع ابن رشد في أوروبا تياراً فلسفياً قوياً في القرون الوسطى ، بداية من القرن الثالث عشر وحتى السادس عشر ، شغل الفكر واللاهوت الغربي وقد أطلق على هذا التيار إسم الرشدية ، وقد أطلق الاكوييني نفسه هذا الإسم عليهم في كتابه «وحدة العقل ضد الرشديين»<sup>(٢)</sup> ، تركزت قوة الرشديين في كلية الفنون في جامعة باريس التي ازدهرت في القرن الثالث عشر واتجهت نحو الفلسفة والمنطق<sup>(٣)</sup> .

يقف في طليعة الرشديين اللاتين سيجير دي برابان (ت ١٢٨٤م) الذي درس في جامعة باريس وكانت له حوارات كثيرة مع اللاهوتيين وخاصة الاكوييني .

(١) ادوارد ، الفلسفة الوسيطة ، ص ١١٢ .

(٢) يرى م. ف. شتينبرغن أن تسمية الرشدية اللاتينية هي اقتضاب لتسمية أكبر وهي "أرسطو طالیه" آخذة ، بالأفلاطونية المحدثة ، هرطوقية أو راديكالية ، متأثرة بالوقت عينه بالرشدية والتومائية" وهذا رأي غير دقيق فالاكوييني نفسه قد أطلق إسم الرشدية عليهم (ادوارد ، ص ١٣٨) .

(٣) ادوارد ، الفلسفة الوسيطة ، ص ١١٦ .

(خاصة قضية وحدة العقل والحقيقة المزدوجة). ومن رموز الرشدية في القرن الرابع عشر جان دي جندان، ومار سيليو دي بادوا؛ وليم الأوكامي، وقد استمر وجود الرشدية كاتجاه فكري فلسفي يتسم بمعارضة الكنيسة حتى عصر النهضة مع بومبانايزي وكريمونيلي، اندرياشيزا لينو<sup>(١)</sup>.

وقد أثنى العديد من اللاهوتيين المسيحيين على ابن رشد، وعلى رأس هؤلاء الفرنسي جيوم دوفراني (ت ١٢٤٩م) الذي نعت ابن رشد بالفيلسوف الشريف جداً<sup>(٢)</sup>، واللاهوتي الاسكتلندي جون دونس سكوت الذي وصف ابن رشد بأنه أصدق شراح أرسطو وأن شرحه يمثل العقل الطبيعي<sup>(٣)</sup>، لكن الاتجاه العام للرشدية بقي يتسم بمعداوة الكنيسة ولذلك اتهموه بالإلحاد والهرطقة، كما وجد بين اتباع الرشدية بعض الملحدون الذين اتخذوا من مقولات ابن رشد وأرسطو ذريعة لتبرير إلحادهم ونقمتهم على الكنيسة<sup>(٤)</sup>، وقد أسهمت عدة قضايا في معاداة الكنيسة للرشدية أهمها:

١. تبني الرشدية لمواقف وآراء تعارض اللاهوت المسيحي التقليدي والمقررات الكنسية الرسمية (خاصة قضايا وحدة العقل، خلود العالم).
٢. خشية الكنيسة من فقدان سلطتها التعليمية أمام مناهضة الرشديين الذين دعوا إلى كسر احتكار الكنيسة للحقيقة والحد من سلطتها على عقول الناس.
- وبناءً على ذلك فقد تعرضت الرشدية لعدد من المقررات الكنسية الناقمة، كما هو الحال مع مقررات عام ١٢٧٠م، عندما انتقدت الكنيسة خمس عشرة أطروحة رشدية وأطروحتين لتوما الأكويني، وفي مجمع فينا قدم ريمون كول (١٣١٦م)

(١) جورج، الفكر العربي، ص ٢٢.

(٢) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية، ص ١٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٧.

ثلاثة مطالب وهي حظر الرشدية، استئناف الحروب الصليبية، تأسيس منابر في الجامعات لدراسة العربية والعبرية. واستمرت الكنيسة على موقفها المدين للرشدية حتى مجمع لايتران ١٥١٢-١٥١٧م<sup>(١)</sup>.

وبصفة عامة كانت آراء المفكرين واللاهوتيين المسيحيين منقسمة تجاه ابن

رشد إلى ثلاثة اتجاهات:

١. الاتجاه الرافض (بقايا الأغسطينية).
٢. أنصار ابن رشد (الرشدية اللاتينية أمثال دي برابان).
٣. التوفيقون الذين قبلوا أرسطو وحاولوا تخليصه من ابن رشد أمثال الاكويني.

### أزمة اللاهوت المسيحي:

يرجع بعض الباحثين بداية الإصطلاحات الدينية في المسيحية الغربية إلى القرن العاشر مع إنشاء نموذج جديد للدير (الحركة البندكتيه) الذي يؤسس لنظرة جديدة للمؤمن المسيحي (الإيمان والعمل).

وفي القرن الثاني عشر حاول المسيحيون منع شراء المناصب الدينية أو تنصيب أحد منهم على أيدي السلطات المدنية. لكن الإصلاح لم يكن بالأمر السهل فظاهرة الإنشقاق متعمقة في اللاهوت المسيحي الذي ضيّع في أغلبه على هامش صراعات دينية وظهور هرطقات وبدع إلى الحد الذي جعل المجامع الكنيسة تكاد لا تجتمع إلا نتيجة الانشقاقات، ويوشك اللاهوت المسيحي أن يكون تاريخاً لللاهوت اللاهروطوقي في مواجهة اللاهوت الهراطوقي.

قد كان اللاهوت المسيحي بأمس الحاجة إلى الإصلاح وكان ينتظر ميلاد لاهوتي عقلاني أرسطي بعد قرون من ظهور أوغسطين العرفاني الأفلاطوني.

(١) ادوارد، ص ١٤٢.



تأثر الأكوييني في بداية حياته بالأغسطينية التي استقت من ابن سينا روحاً جديدة حاولت من خلالها بث الروح في جسد اللاهوت الأغسطيني التقليدي<sup>(١)</sup>، وكسائر هؤلاء الأغسطينيين تأثر الأكوييني بابن سينا وظهر ذلك جلياً في مؤلفاته . فقد استشهد الأكوييني بأقوال لابن سينا في حوالي ٤٠٠ موضع<sup>(٢)</sup> وقد أحس الأكوييني بالهوة التي أحدثتها الرشدية في اللاهوت المسيحي وعجز الأغسطينية عن مواجهة الأسئلة المتواصلة للعقل الغربي ، لذلك انتقل من قيود الأغسطينية وراح يؤسس لمذهب فكري جديد يهدف إلى إعادة النظر في الأصول الدينية المسيحية على أساس من العقل والفلسفة ، الأمر الذي جلب له عداوات الأغسطينيين الذين راحوا ينتقدون (رشدية) الأكوييني<sup>(٣)</sup> .

### الأكوييني رشدي أم ضد الرشدية؟

تكمُن أهمية الأكوييني باعتباره أكبر اللاهوتيين الفلاسفة الذين مهدوا الطريق أمام الفكر الأوروبي الحديث والنهضة الشاملة للحضارة الغربية . كانت جامعة باريس والتقاءه بالرشدية أهم مراحل حياة الرجل حيث دخل أثناء تدريسه في تلك الجامعة (١٢٦٩م - ١٢٧٢م) في حوارات بل وصراعات مع الرشديين الذين تكاثروا في كلية الفنون ، وكان جل تلك الحوارات يدور حول فهم أرسطو وكانت مسألة وحدة العقل قطب الرchy الذي دارت عليه كثير من الحوارات .

لقد تأثر الأكوييني بأستاذه ألبرت الأكبر صاحب الثقافة الأرسطية الواسعة والمطلع على الكثير من المؤلفات العربية المترجمة ، لكن الأكوييني تجاوز أستاذه في تعمقه الشديد في الفلسفة الأرسطية وشروحاتها الرشدية . وقد كان جهد الأكوييني في تأسيس علم اللاهوت الذي يقوم على الفهم والمنطق الصحيح . وقد عرف

(١) التكيس ، الإسلام والمسيحية ، ص ٣٦ .

(٢) ادوارد ، الفلسفة الوسيطة ، ص ٢٠ .

(٣) غرديه ، فلسفة الفكر ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

الاكوييني اللاهوت بأنه علم يستقصي لمضمون العقيدة بمعاني العقل مستنيراً بالإيمان<sup>(١)</sup>، واستخدم الاكوييني الفلسفة الأرسطية في سبيل تحقيق هذا العلم وصياغة نظرية معرفية تنطلق من الواقع المحسوس بشقيه سواء كان خارجياً (الحواس) أم داخلياً (الصورة) فكلاهما يرتبط في وحدة متكاملة وهو يتبع مذهب أرسطو في هذه النظرية<sup>(٢)</sup>.

تقوم نظرية المعرفة عند الاكوييني على وظيفة التجريد الذهني الذي يختص بها العقل البشري، وتقابل هذه الفكرة العقل المفارق عند الرشديين والسينويين والاشراق عند الأغسطيين<sup>(٣)</sup>.

عمل الاكوييني على إدخال الأرسطية العقلانية في اللاهوت المسيحي خدمة للدين وطمعاً في استجلاب أنصار الرشدية والعقلانية من المسيحيين والمسلمين مظهراً مدى انسجام العقيدة المسيحية وتوافقها مع الفلسفة العقلانية. منتقداً الفكرة الرائجة بين بعض اللاتين الذين يعتقدون بأن اليونان والعرب وحدهم القادرون على التفلسف والقبول بالحقيقة العقلية<sup>(٤)</sup>. وعند النظر إلى موقف الاكوييني من ابن رشد لابد لنا من استرجاع بعض الحقائق:

- أ. تأثير الصراع مع الرشديين اللاتين في موقف الاكوييني من ابن رشد وبصورة أوسع الصراع بين المشرق المسلم والغرب والمسيحي.
- ب. محاولة الاكوييني الحثيثة تجريد الأرسطية من الرشدية.
- ج. إخضاع الفلسفة لخدمة العقيدة المسيحية.

لذلك لم يكن من المستبعد أن ينتقد الاكوييني ابن رشد والرشدية فقد أطلق على ابن رشد لقب المحرف واتهمه بتحويل آراء الفلاسفة اليونان، ولكن الاكوييني لم

(١) Catholic dictionary/ John A.H. U.S.A 1976 /432

(٢) ادوارد، ص ١٣٤.

(٣) غوردي، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٤) جورج، الفكر العربي، ص ٢٠.

يكف عن الاستشهاد بابن رشد وشروحاته بعيداً عن موضوع وحدة العقل أو ازدواجية الحقيقة. إن ما يجمع بين ابن رشد والاكوييني أكثر بكثير مما يفرقهما؛ فكل منهما معجب بالفلسفة الأرسطية ويرى بأنها لا تتعارض مع الدين والوحي.

استخدم الاكوييني الأدوات الصناعية لابن رشد وهي تشمل التعريفات والتمييزات في المفاهيم وقام بتطوير بعضها بحسب الحاجة<sup>(١)</sup>. ولا ننسى اتباع الاكوييني أسلوب ابن رشد نفسه في شرح أرسطو وتبعية فلسفته. ويبقى موضوع تأثير الاكوييني بابن رشد مجال نقاش واختلاف بين أولئك المؤيدين لوجود هذا التأثير أمثال ميغيل آسين، ليون غوتيه وآسين بلا سيوس، والمعارضين له. وانتهى هؤلاء المؤيدون إلى إثبات تأثير ابن رشد على الاكوييني مفرقين بين رشدية الاكوييني ورشدية سيجير دي بربان.

يتصور ميغيل آسين التوافق بين المفكرين من خلال اللاهوت المسيحي ويؤدي به ذلك إلى اعتبار ابن رشد مفكراً تومستياً، أما ليون غوتيه فيجعلهما يتلاقيان على صعيد (العقل)<sup>(٢)</sup>، وأما آسين بلا سيوس فقد أفرد بحثاً مستقلاً للتعرف على أثر ابن رشد في الاكوييني. ويتردد كثير من اللاهوتيين المسيحيين في تقييم الحقائق التي خلص إليها هؤلاء الباحثون تقييماً إيجابياً وهذا يؤكد استمرار عقدة الإسلام في الفكر الديني المسيحي وكان وجود هذه العلاقة يؤثر في صحة المسيحية ونقائها. كما ويحاول هؤلاء نفي تأثير علم الكلام في اللاهوت المسيحي عموماً والاكوييني على وجه الخصوص<sup>(٣)</sup>، وهذا التأثير يظهر جلياً في مؤلف الاكوييني (الخلاصة في الرد على الأجانب) الذي ألفه للرهبان المبعوثين إلى الأندلس والمغرب الإسلامي. ورغم محاولة الاكوييني الرد على المتكلمين المسلمين، إلا أنه استعمل أدواتهم

(١) غرديه، فلسفة الفكر، ج٢، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٣٠.

ونظرياتهم من قبيل الجزء الذي لا يتجزأ ونظرية نفي العلل الوساطية وغيرها من القضايا<sup>(١)</sup>.

وفي سياق الحديث عن تأثير الاكويني بابن رشد يشار السؤال عن وصول مؤلفات ابن رشد (تهافت التهافت، الفصل، مناهج الكشف عن الأدلة) إلى الاكويني، خاصة وإن أصالة ابن رشد وإبداعه تكمن في مؤلفاته أكثر من شروحه لأرسطو.

من المرجح أن الاكويني قد عرف التهافت ورسائل ابن رشد الصغيرة (فصل المقال، الكشف عن مناهج الأدلة، العلم الإلهي) من خلال اثار ريمون مريوس، ويذكر آسين بلا سيوس أن مارتين قد ذكر في كتابه المشهور (صراع الإيمان رداً على المسلمين واليهود) كتباً لابن رشد ترجمت عن العربية نحو كتاب التهافت والرسالة في العلم القديم ويشير كذلك إلى "فصل المقال"<sup>(٢)</sup>.

وعند الرجوع مرة أخرى إلى ذكر (رشدية الاكويني) نجد المستشرق الإسباني آسين بلا سيوس يؤكد موقفه الداعم لرشدية الاكويني بالعديد من الاستشهادات النصية من مؤلفات الاكويني، منها موضوع ضرورة الوحي من حيث درجتها وطابعها، ولا سيما الوحي الواقع على الحقائق الطبيعية المتعلقة بالله، فإن المفروض في ضرورة الوحي المتعلق بهذه الحقائق الظاهرة لمعظم البشر أن تكون أمراً يخطر بالبال بطبيعة الحال، على أنه لا يمكن أن يطلب منهم المجهود اللازم من البحث الفلسفي لاكتشافها بالعقل وحده.

وفي هذا الموضوع توجد مادة شبيهة عند الفيلسوف اليهودي بن ميمون في كتابه دلالة الحائرين<sup>(٣)</sup>.

<sup>(١)</sup> يؤكد جلزون تأثر الاكويني بالكلام الأشعري في ستة قضايا في كتابه الخلاصة في الرد على الأجانب انظر غرديه، ج ٢، ص ٢٣٤.

<sup>(٢)</sup> غرديه، ج ٢، ص ٢٢٩.

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق، ص ٢٢٩.

## التوفيق بين الفلسفة والشريعة الدينية :

لم تكن قضية التوفيق بين الفلسفة والدين وليدة تأثير ابن رشد في الثقافة الأوروبية فقد شغلت هذه المسألة اللاهوت المسيحي منذ عهد مبكر، لكن مساهمة ابن رشد جاءت في طريقة فهمه ومعالجته لهذه الإشكالية .

يعتبر العالم اليهودي فيلون الاسكندري (ت ٥٠م) صاحب التأثير الأكبر في تأسيس التوفيقية المسيحية، فقد تأثر عدد من اللاهوتيين المسيحيين الذين حاولوا فهم معاني النصوص المسيحية بطريقة تناسب معاني الفلسفة اليونانية مستخدمين التأويل كأداة لتحقيق هذا الغرض<sup>(١)</sup> .

ومن أشهر هؤلاء كليمنضوس، أوريجينوس (ت ٢٥٤م) أغسطين (ت ٤٣٠م)، وقد شكلت معالجة هذا الأخير الحل المسيحي الرسمي الذي استمر حتى الاكوييني . ولكن الطبيعة الوعظية التبشيرية كانت طاغية على التوفيقية الأغسطينية «ليست الفلسفة الحقّة إلا الدين الحق، وبالمقابل فإن الدين الحق ما هو إلا الفلسفة الحقّة»<sup>(٢)</sup>، ويقول «وقع بين يدي بعض كتب الفلاسفة الأفلاطونيين المترجمة من اليونانية إلى اللاتينية، قرأت فيها، ليس بنفس اللفظ والكلام، وإنما بمعنى مشابه جداً . ومدعوم بعدد كبير من البراهين، أن الكلمة كانت منذ البدء وأن الكلمة كانت في الله، وإن الكلمة كان الله . . .»<sup>(٣)</sup> .

لكن موقف اللاهوت المسيحي لم يكن واحداً وثابتاً تجاه الفلسفة ولذلك ظهر اتجاه مبكر يعادي الفلسفة وفي مقدمة هؤلاء ترتليانوس (ت ٢٢٠م) وإيرينيوس صاحب كتاب (الرد على الهرطقة)<sup>(٤)</sup> .

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية، ص ١٧٠ .

(٢) ادوارد جونو، ص ٥٨ .

(٣) المرجع السابق، ص ٣٣ .

(٤) غردية، فلسفة الفكر الديني، ج ٢، ص ٩٤-٩٦ .

وكان صدور الحرمان الكنسي عام ١٢١٠م امتداداً لهذا الموقف المأزوم تجاه الفلسفة "تمنع تحت طائلة الحرام، قراءة كتب أرسطو حول الفلسفة الطبيعية جهاراً أو خفية وكذلك الشروحات حولها"<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١٢٣١م منع البابا غريغوريوس قراءة كتب أرسطو على منابر الجامعات واعتبر الفلسفة العلمانية تشوه علم اللاهوت، وفي هذا الوقت من القرن الثالث عشر كان الاكوييني يصيغ لاهوتاً توفيقياً ينسجم مع الفلسفة بعيداً عن المقررات الكهنوتية المعادية للفلسفة متأثراً برياح الفكر القادم من الحضارة الإسلامية.

### التوفيقية الإسلامية:

لا شك أن التوفيقية الإسلامية هي أكثر وضوحاً من التوفيقية المسيحية نتيجة السببية التعليلة التي تصبغ القرآن الكريم، ويؤكد ذلك بعض اللاهوتيين المنصفين بقوله: «إن الذي يزيدنا (التوفيقية) ضبطاً وتعييناً في الإسلام هو أن غياب عقيدة التثليث يتيح لنا القول: إن الإله الذي اكتشفه العقل والله الذي يوحى به القرآن هما إله واحد»<sup>(٢)</sup>، هذا بالإضافة إلى عدم اعتراف الإسلام بطبقة خاصة لرجال الدين تفرض تفسيراً نهائياً ومطلقاً للنص، فالتفسير من حق كل واسع في العلم. وقد اهتمت الفلسفة الإسلامية، خاصة تلك المتأثرة بالأفلاطونية المحدثة ببحث موضوع الاتفاق بين العقل والوحي والفلسفة والعقيدة.

وقد ساهم كل من الكندي (ت ٨٧٥م) والفارابي (ت ٩٥٠م) وابن باجة، وابن طفيل<sup>(٣)</sup> في التوفيق بين الإسلام والفلسفة اليونانية، ورأى هؤلاء جميعاً بأن الوحي قد جاء مطابقاً لما وصل إليه العقل من حقائق. آمن ابن رشد بالعصمة المطلقة للقرآن

(١) غردية، فلسفة الفكر الديني، ج ٢، ١٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٣) ماجد فخري، ص ٣٦٤-٣٧٠.

وفي الوقت نفسه آمن بوحدة الحقيقة وتكافؤها بين الفلسفة والشريعة ، وكان تأليف (فصل المقال) لأجل هذا الغرض وقد استخدم ابن رشد التأويل كآلية فاعله لتحقيق التوافق والوحدة بين معاني النصوص الشرعية والفلسفة العقلية .

سعى ابن رشد إلى تأصيل العقيدة تأصيلاً معرفياً عقلانياً وفي الوقت نفسه إيجاد تأسيسات عقدية لبنائه المعرفي الفلسفي مستخدماً أدوات إصطلاحية جديدة ومحددة .

وبكلمة موجزة يمكن تلخيص موقف ابن رشد في سعيه للتوفيق بين الشريعة والفلسفة بقوله : « جاء الوحي متمماً لعلوم العقل »<sup>(١)</sup> .

وللتعرف على مدى الاشتراك والافتراق بين ابن رشد والاكوي في قضية التوفيق بين الدين والفلسفة ، يتأكد هنا ضرورة النظر في مسألة وحدة العقل والحقيقة المزدوجة التي ترتبط بالتوفيق ارتباطاً عميقاً .

### بين وحدة العقل والحقيقة المزدوجة

غالباً ما يتم معالجة موضوع وحدة العقل مستقلاً عن موضوع الحقيقة المزدوجة أو ثنائية الحقيقة ، وهذا يؤكد اضطراب الفهم في هذه المسألة وغياب التصور الدقيق لها .

ويمثل هذان الموضوعان أخطر الموضوعات وأكثرها جدلاً في القرن الثالث عشر بين الرشديين من جهة والاكويين من جهة أخرى .

فقد آمن الرشديون أن الناس جميعاً يشتركون في العقل وهو ثابت بصفته وطبيعته ، لكن تفاوت الناس يكون في استمدادهم منه وكلما كان الاستمداد أكثر كان قرب الإنسان إلى الكمال والسعادة<sup>(٢)</sup> . لكن بعض الباحثين يرون أن الرشديين

(١) ماجد فخري ، ص ٣٨٤ .

(٢) محمد عبده ، الاسلام والنصر القيم ، الجزائر ، ١٩٨٧ ، ص ١٨٢ .

اللاتين هم الذين ابتكروا قضية وحدة العقل ونسبوها إلى ابن رشد<sup>(١)</sup>. ولا شك أن ابن رشد يؤمن بوحدة الحقيقة وإمكانية الوصول إليها بالجهد الإنساني العقلاني، وما كان للتوفيق بين الشريعة والفلسفة أن يكون لولا وجود هذه الفكرة عند ابن رشد. والحق أن القول بوحدة الحقيقة يعود إلى الافلاطونية المحدثة التي رأت وجود حقيقة واحدة لها مظاهر متعددة. وقد وقع تحت تأثير هذه الفكرة كل من الكندي وابن سينا والفارابي وإخوان الصفا والمدرسة الاشراقية بصفة عامة، وقد مثلت المقولة الآتية المنسوبة لابن رشد والتي استشهد بها الاكوييني في كتابه «وحدة العقل ضد الرشديين» المعنى السائد لمفهوم وحدة العقل.

«العقل يجعلني اعتقد بالضرورة بأن ليس هناك سوى عقل واحد غير أنني بالإيمان اعتقد بشدة نقيض ذلك»<sup>(٢)</sup> وهذه العبارة تخلط أيضاً بين موضوع وحدة العقل وموضوع ثنائية (أزدواجية) الحقيقة.

هنا مجموعة من الاقتراحات يمكن أن تقدم للتعرف على أصول فكرة الحقيقة المزدوجة منها:

(أ) أن هذه الفكرة هي مجرد حل اخترعه الرشديون اللاتين في محاولة منهم للتخفيف من حدة النزاع مع الكنيسة، فهذه الصيغة ناتجة عن أسباب سياسية في الأساس حاول اتباعها الابتعاد بأنفسهم عن مخاطر اللعنات الكنيسة.

(ب) يعتقد ما رتين جريمان بأن مبدأ الحقيقة المزدوجة قد ظهر في القرن السادس عشر مع بومبانازي، وهذا رأي يخالف الواقع، فالاكوييني نفسه قد قام بالرد عليه في القرن الثالث عشر!!

(ج) ويذهب أدوار جونو إلى أن الرشدية لم تقل بالحقيقة المزدوجة بل كان ذلك ناتجاً عن سوء فهم اللاهوتيين لهم، فقد ذهب الرشديون إلى أن الحقيقة شيء

(١) جورج زيناتي، ابن رشد والفكر اللاتيني، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦.



والفلسفة شيء آخر غير الحقيقة وهذا يلغي النزاع بين الفلسفة (كعلم) والايان فلا علاقة لأحدهما بالآخر .

ومثال على ذلك ما يقوله زعيم الرشدية دي برابان في معرض حديثه عن أرسطو «هذا وفقاً لرأي الفيلسوف (أرسطو)، ولكن دون أن نؤكد أن ذلك حقيقي»<sup>(١)</sup>.

د) ويمكن أن يكون هذا الموقف ناتجاً عن توجه (لا أدري) في المدرسة الرشدية لا يسعى إلى التعرف على الحقيقة بقدر سعيه إلى فهم معانيها لدى أصحابها . ويظهر أن احتمال اختراع الرشديين لهذه الفكرة محتمل جداً خاصة ، وأن اللاهوت المسيحي ما كان ليسمح بظهور مذاهب دينية تتكلم عن الحقائق المطلقة لكنه قد يسمح بوجود حقيقة مخالفة لا تشكل مذهباً دينياً بل اتجاهافكرياً . كما أنه يمكن القول ان ازدواجية الحقيقة قد شكلت مرحلة تمهيدية للوصول بالعقل المسيحي إلى الوحدة والانسجام مع الفلسفة الارسطية .

انشغل القديس توما وأستاذه البرت الأكبر في الرد على أطروحة وحدة العقل فقد قام البرت بتكليف من البابا بتحرير رسالة الفلسفة ، ١٢٥٦م أطلق عليها اسم في وحدة العقل رداً على ابن رشد<sup>(٢)</sup>

وهنا يظهر التباين بل والتناقض في موقف اللاهوت المسيحي تجاه موضوع وحدة العقل ؛ فقد فقد هرب البرت من القول بوحدة العقل إلى الحد الذي جعله يقول بثنائية الحقيقة !! فكيف يكون من المعقول أن ينتقد ابن رشد والرشدية بقولهم بثنائية الحقيقة ثم نجد اللاهوت المسيحي الرسمي يقع بها . يقول البرت «الأمور اللاهوتية لا تتفق في مبادئها مع الأمور الفلسفية ، فإن اللاهوت يقوم على الوحي دون العقل ، وإذن فلا نستطيع في الفلسفة الخوض في مسائل لاهوتية»<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٢) إدوارد، ص ١٣٨-١٣٩ .

(٣) يوسف كرم، ص ١٦٢ .

وقد اعتبر كل من الاكويني والبرت أن مكنم الخطر في القول في وحدة العقل هو إنكار الخلود الشخصي للنفس وبعث وخلود الجسد؛ الأمر الذي رأوا فيه تهديداً لعقيدة الثواب والعقاب<sup>(١)</sup>.

ويحتج الاكويني في سياق رده على الرشدية في قضية وحدة العقل، بأنه من غير المحتمل أن لا يكون في النفس العاقلة مبدأً بموجبه تستطيع أن تظهر فعاليتها الطبيعية وهذا مبدأ يتحقق في حال قبولنا بمبدأ وجود عقل فعال واحد سواء سميناه الله أم العقل<sup>(٢)</sup>.

وقول الاكويني هذا مستمد من قول ابن سينا الذي ذهب إلى أن لكل فرد عقلاً منفعلاً خاصاً به في حين يوجد عقل فعال واحد للجنس البشري قاطبة<sup>(٣)</sup>، ويرى الاكويني أن امتلاك كل انسان لعقل فعال مستقل وخاص به يشكل تعدد على خصوصية الانسان وكرامته ويؤدي إلى تجريد الانسان من نشاطه وتعطيل السببية. لكنه وكما أشرنا أننا يقر بوجود نور صادر عن الله موجود في كل انسان (النور الذاتي) يرد عليه عقله ويتيح له أن يدرك نوعاً من الحقائق لا يتسع لها هو وحده<sup>(٤)</sup>.

ويبقى أن نشير إلى أن الأصول العامة التي أركز عليها كل من الأكويني وابن رشد في نظرتهم إلى العقل تقوم على:

أ) اتفاق العقل والايان «العقل الطبيعي لا يمكن أن يكون متعارضاً مع حقيقة الايمان فكل من العقل والايان منبثق عن الله»<sup>(٥)</sup>.

ب) السببية: رفض كل من ابن رشد والاكويني تعطيل الأسباب، ورأي ابن رشد أن ذلك يستلزم إبطال مفهوم الفعل ويقوض الأسس التي يمكن أن تنسب

(١) يوسف كرم، ص ١٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٤) المرجع السابق، ص ١٦٢.

(٥) غرديه، ج ١، ص ٢٣١.

بحسبها ظواهر الكون والفساد في العالم إلى الله ، فالسببية هي أساس العلم الذي هو في الحقيقة علم بالاسباب التي تكمن وراء ظاهرة معينة وبمقدار جهلنا بالاسباب نجعل حقائق الاشياء ، وإذا ما قدرنا رفع الأسباب رفع العقل . ويرفض الاكوييني إغراق كل سببية مخلوقة في محيط السببية الالهية ، ويرى أن من ينفي سببية الإنسان يقع في عكس ذلك تماماً ، فالسببية في المخلوقات تأت من السببية في الخالق<sup>(١)</sup> .

### وجود الله

يرى كل من ابن رشد والاكوييني أن العلم بوجود الله كعلة أولى واجب عقلاً وهو سابق على التعرف على ما هيته وصفاته ، فالعقل الطبيعي قادر على التعرف على علل الموجودات الطبيعية ويؤدي بنا إلى الايمان بالله (وجوده و وحدانيته) . وأما فيما يتعلق بما هية الله وصفاته فهي خاضعة للوحي ، ومن الجدير بالملاحظة إقرار الاكوييني بضرورة وحدانية الله من خلال العقل في حين لا يمكن فعل ذلك مع الثالث الذي يتجاوز العقل .

إن تنزيه الله من كل تركيب ونقص وجسمانية أمر واجب عقلاً ، يتفق عليه كل من ابن رشد والاكوييني ، رغم أن إثبات ذلك أكثر صعوبة في اللاهوت المسيحي منها في العقيدة الإسلامية .

### الأدلة على وجود الله

اختلف ابن رشد مع أرسطو في تصور الله فهو يرى الله على صلة مع العالم عبر الوحي . ويؤمن ابن رشد بأنه حي خالق فاعل يحدث الاحداث باستمرار ويهب الوجود والحياة للموجودات في حين يتصوره أرسطو كجوهر أول وعقل محض مكتف بذاته ولا علاقة له مع الكون<sup>(٢)</sup> .

(١) إدوارد ، ص ١٢٩-١٣٠ .

(٢) إدوارد ، ص ١٣١ .

وفي كتابه الكشف عن مناهج الأدلة يرفض ابن رشد الدليل السببي لأرسطو ودليل الجواز لابن سينا والمتكلمين، ويؤثر دليل الاختراع والعناية لاتفاقهما مع مدارك الناس كافة، وارتكازها على النصوص القرآنية<sup>(١)</sup>. أما الاكويني فيضع في خلاصته اللاهوتية خمس طرق توصل إلى الله وتدل عليه على ضوء العقل وهي :

١ . الحركة

٢ . العلة الفاعلة

٣ . الإمكان

٤ . درجات الكمال

٥ . النظام أو (غائية الكائنات).

وهذا الدليل الخامس هو دليل العناية عند ابن رشد . يقول الاكويني في شرحه لهذا الدليل «الدليل الخامس من جهة نظام الطبيعة وله وجهان، أما الأول فإننا نرى الموجودات العاطلة من المعرفة تفعل لعناية، وهذا ظاهر من أنها تفعل دائماً أو في الأكثر على نهج واحد وبحيث تحقق الأحسن، مما يدل على أنها لا تبلغ إلى الغاية اتفاقاً بل قصراً، وما يخلو من المعرفة لا يتجه إلى الغاية مالم يوجه إليها من موجود عارف، فإذاً يوجد موجود عاقل يوجه الأشياء بالطبيعة كلاً إلى غايته، وأما الوجه الثاني فهو أن جميع الكائنات منظمة فيما بينها لانتفاع بعضها ببعض والمتباينات لا تتفق في نظام واحد مالم تكن منظمة من واحد»<sup>(٢)</sup>.

### خلق العالم:

ويتفق كل من الأكويني وابن رشد في موقفهما من قضية خلق العالم التي قال بها الفلاسفة . فكل ما خلا الله فهو مخلوق من الله ضرورة، لأن الوجود القائم بذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً، يقول ابن رشد بخلق الله وصنعه للعالم لكنه

(١) ماجد فخري، ص ٣٨١.

(٢) يوسف كرم، ص ١٧٧.

ينكر في سياق رده على (تهافت الفلاسفة) أن يكون خلق الله للعالم مشابهاً لخلق الفاعل في الشاهد، فالعالم في حدوث مستمر وليس بمنطقه (في زمان محدد)<sup>(١)</sup>.  
لقد اعتقد كثير من المسلمين والمسيحيين أن القول بقدم العالم يفضي إلى القول بوجود قديمين (الله والعالم) وهذا يجعل العالم يشارك الله في أخص خصائصه، ويفضي في الوقت نفسه إلى نفي الحدوث عن العالم.

يجمع ابن رشد في رده على الغزالي، الذي جعل قدم العالم أحد الأسباب المكفرة للفلاسفة، بالتفريق الذي استمده من ابن سينا (بين القديم بالذات والقديم بالزمان) رغم اشتراك لفظ القدم بينهما، فالأول هو ما ليس له علة وأوجدته فهو واجب الوجود، والقديم بالزمان موجود بعلة خارجة فهو محدث بالذات<sup>(٢)</sup>.

يذهب الاكويني إلى أن قدم العالم ممكن (غير مستحيل عقلاً) وهو في ذلك يتبع البرت الأكبر وابن ميمون، اللذين تأثرا بابن رشد، ويعتبر الاكويني أن العقل غير قادر على البرهنة والقطع في حدوث أو قدم العالم، والوحي وحده قادر على حسم هذه القضية<sup>(٣)</sup>. ويعتبر الاكويني أدلة أرسطو على قدم العالم جدلية وليست برهانية<sup>(٤)</sup> ولذلك لا مجال لإثبات حدوث العالم إلا بالإيمان.

---

(١) رفيق النجم، ابن رشد في رسالة الفلسفة، ص ١١.

(٢) شفيق البقاعي، ابن رشد العالم والفيلسوف، ص ٨٩.

(٣) يوسف كرم، ص ١٦٥.

(٤) المرجع السابق، ص ١٨٣.

## الخاتمة

استطاع اللاهوت المسيحي الخروج من أزمتة الطويلة التي استمدت قروناً طويلة عندما شرع بالاستفادة من التراث الفلسفي الإنساني متجاوزاً ذلك الشعور الخادع باكتمال المعرفة وعدم الحاجة بالنظر وراء جدران الذات .

لقد كانت مساهمة ابن رشد في اللاهوت المسيحي وفي نشأة الوعي الفلسفي الأوروبي مساهمة عميقة ومؤثرة . لكن حقل البحث مازال بحاجة إلى الجهد والتنقيب عن العلاقة بين أكبر شخصية في الفكر الفلسفي الإسلامي وأكبر شخصية في اللاهوت المسيحي ، ولعل هذا الجهد الذي قدمته في هذا البحث يكون مقدمة لاستنهاض البحث بطريقة أشمل وأعمق .

لقد سعى كل من ابن رشد والاكويني إلى إصلاح العقل وبناء المعرفة على أسس منطقية تقوم على مراجعات شاملة للفكرين الإسلامي والمسيحي ، واستطاع كل منها تجاوز العثرات والتغيرات التي رافقت فهم العلاقة بين العقل الدين وقدا فهماً عقلاً نياً جديداً لحقائق الإيمان .

استطاع اللاهوت المسيحي أن يعيد ترتيب المعارف الفلسفية الوافدة من الفكر الإسلامي بما يتناسب وأغراضه ، وكان الاكويني في طليعة اللاهوتيين الفلاسفة الذين قاموا بهذا العمل الجبار ، وقد كان تطويره قديماً في القرن الرابع عشر تحولاً ذكياً في إدارة السلطة الكنسية وتوجهها نحو المعرفة الإنسانية الأوسع . . ويتبقى عدد من القضايا التي أثارها ابن رشد في طليعة الاهتمام لكل مشروع إصلاحى جاد يهدف إلى استنهاض العقل الإسلامي الذي أرهقه تلبس إبليس وغيره من الكتب التي ترى في الفلسفة والفكر الإنساني الحر وسوسة شيطانية .